الفصل الثالث

بالعقل انتصرت العروبة، وانتشر الإسلام

قبل أن ينقضي القرن الهجري الأول كانت الدولة العربية قد ضمت أمما وشعوبا تتدين بجميع ما على الأرض من ملل ونحل وعقائد ومذاهب وأديان ! . .

ففي (٩٤هـ-٧١٢م) كانت الفتوحات قد بلغت السند ، في الشمال الشرقي للقارة الهندية ، والأفغان ، وماوراء النهر - هذا في الشرق - ثم بلغت في الغرب إلى قلب الأندلس . . وبذلك غدت هذه الدولة أكبر امبراطوريات ذلك التاريخ . . وهي لم تضم فقط شعوباً تتدين بكل أديان الدنيا ، سماوية ووضعية ، بل وضمت رعية أغلبيتها العديدة من غير المسلمين! . .

فمن رعيتها من كانوا يتدينون بكل مذاهب المسيحية يومئذ : اليعقوبية ، والملكانية ، والنسطورية .

ومن يتدينون بكل مذاهب اليهودية : ربانيين ، وقرائين ، وسامرة . . ومن يتدينون بمذاهب الفرس - (المجوس) - الدينية : المانوية ، والمزدكية ، والديصانية ، والمرقيونية ، والماهانية ، والصيامية ، والمقلاصية - وهي فروع وفرق للوثنية - وكذلك مذاهب : الزرداشتية ، والتناسخية ، والكيومرثية ، والزرواثية ، والكينوية .

obeikandl.com

ومن يتدينون بديانات الهند : هندوسية ، وسمنية .. الخ ..

ومن يتدينون بديانة الصابئة ، المغتسلة ، بشمالي العراق ، وفيها تمتزج المجوسية بالمسيحية بعبادة الكواكب .

ومن يتدينون بمذاهب روحية ، سماهم لها كتاب (الملل والنحل) : « أصحاب الروحانيات » ..

ومن يتدينون ، أيضاً ، بعبادة الأوثان .. في مناطق من بلاد الشمال الافريقي ، غربا ، وبلاد ماوراء النهر التركية ، في الشمال الشرقي ..

هكذا كانت الأوضاع الدينية بالدولة العربية الاسلامية .. امبراطورية كبرى ، ضمت ، مع الاسلام ، كل ديانات الدنيا .. والمسلمون هم الحكام ، وهم الأقلية الدينية بين المحكومين ! ..

ومنذ البدء اتخذ الاسلام موقفاً واضحاً ، وغير مسبوق ، من المتدينين بالديانات السماوية ، فلقد أكد قرآنه الكريم وحدة الدين الإلهي ، أزلا وأبدا ، عندما قرر أن أصول الدين ثلاثة : الايمان بالألوهية ـ (وحدانية الإلّه)ـ والإيمان باليوم الآخر ـ (الحساب والجزاء) ـ والعمل الصالح .. ويجمع هذه الأصول عنوانان رئيسيان : التوحيد ، والطاعة .. والتوحيد هو « الحنيفية » ، والطاعة هي « الاسلام » .. فالدين الحق والواحد هو هذا ، وكما قال الرسول ، عليه الصلاة والسلام : « **ان ذات الدين عند الله : الحنيفية المسلمة** ... ومن يعمل خيراً فلن يكفره » ..[1] وهذا معنى : ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[2] و﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾[3] .. وبهذا الدين الواحد ، أزلا وأبدا ، جاء محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فهو قد جاء ـ في الدين وأصوله ـ ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾[4] ...

---

(١) رواه الترمذي في سننه .

(٢) آل عمران : ١٩ .

(٣) آل عمران : ٦٧ .

(٤) البقرة : ٩٧ ، وآل عمران : ٣ ، وفاطر : ٣١ .

أما في « الشريعة » ، أي النهج والطريق والمذهب الذي يسلكه الانسان كي يتدين عن طريقه بأصول هذا الدين الواحد . . فلقد جاء الاسلام بشريعة جديدة ، دعا إليها الناس أجمعين ، وثنيين كانوا أم أهل كتاب . . لكن قرآنه الكريم قد ميز بين المشركين ، الذين يجحدون أصول الدين ، وبين أولئك الذين يتدينون بالدين الإلهي ، ويسلكون إليه شرائع الأنبياء والأمم السابقة ، دون شريعة محمد وأمة الاسلام ، فسماهم أهل الكتاب ، بل وألمح إلى أن بقاءهم على شرائعهم لا يخرجهم من دائرة التدين التي تضمن لصاحبها النجاة . . فاليهود ﴿ عندهم التوراة فيها حكم الله﴾[1] والله سبحانه أنزل ﴿التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾[2] . . وبالنسبة للنصارى : فـ ﴿ ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه﴾[3] . . ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾[4] . . ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[5] . . والمفسرون يقفون امام هذه الآيات فيقولون ان معناها أن الله « **جعل التوراة لأهلها ، والانجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا في الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد ، لا خلاف فيه** . . »[6]

ويقولون في تفسير الاشارة الواردة بقوله سبحانه ﴿ ولذلك خلقهم﴾ : « **ان الاشارة للاختلاف ، أي وللاختلاف خلقهم !** »[7]

وهو يؤكد نجاة كل المتدينين بأصول الدين الإلهي الواحد ، رغم تعدد شرائعهم التي ينهجونها سبلا لهذا التدين ، فيقول القرآن الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم

---

(١) المائدة : ٤٣ .
(٢) المائدة : ٤٤ .
(٣) المائدة : ٤٧ .
(٤) المائدة : ٤٨ .
(٥) هود: ١١٨ ، ١١٩ .
(٦) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٦ ص ٢١١ .
(٧) المصدر السابق . ج ٩ ص ١١٥ .

الآخر ، وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

اذن ، فموقف الاسلام من أهل الكتاب يتعدى التسليم بحقهم في حرية العقيدة والضمير ، المؤسسة على قاعدة ﴿لا اكراه في الدين﴾[2]، والنابعة من طبيعة « الايمان » ، باعتباره تصديقاً قلبياً ويقيناً داخلياً لا يمكن تحصيله بغير الاقتناع الحر ، ويستحيل الحصول عليه بالاكراه . . يتعدى الاسلام هذا الموقف ، ويرتقي فوقه إلى حيث يقرر وحدة الدين الإلٓهي ، أزلا وأبدا ، وتعدد الشرائع الإلٓهية ، أزلا وأبدا كذلك ، ومن ثم فان التعدد في الشرائع واقع مقرر وقائم ، وهو سنة من سنن الله في الكون . . وتبعا لذلك فان الاسلام لا يعرف الحرب الدينية التي تكره الآخرين على التمذهب بشريعته ، وكذلك فان دولته التي صنعت أكبر الفتوح العسكرية وأسرعها ، وألتي أسست أكبر الامبراطوريات في القرن الأول من عمرها قد ضمت واحتضنت كل الذين تدينوا بديانات السماء ! . . وفي البداية كانت هذه الحرية مقررة لليهود ، والنصارى ، والصابئة ، وهم الحنفاء ، الذين استبدلوا بالوثنية العربية ما استطاعوا الكشف عنه وتأليفه من توحيد إبراهيم الخليل ، عليه السلام . . ولكن الاعتبارات السياسية سرعان ما استفادت من روح التسامح الاسلامي فاتسعت بنطاق هذه الحرية كي تشمل المجوس بفرقهم ومذاهبهم - عندما اعتبروهم أهل كتاب قديم ضيعوه بانحرافاتهم عنه وتبديلهم له ، كما روي عن الامام الشافعي - . .[3] وكي تشمل أيضاً مغتسلة حران وشمالي العراق ، الذين تسّموا باسم الصابئة ! . . . وفي عهد بني أمية حرص الكثير من الخلفاء والولاة وجباة الضرائب على جمع الأموال أكثر من حرصهم على نشر الاسلام - بل لقد ظلوا يجمعون الجزية ممن دخل في الاسلام ! - فرأوا في أخذ الجزية من وثنيي بلاد ما وراء النهر ، وبربر الشمال الافريقي ، وأصحاب الديانة

---

(١) البقرة : ٦٢ .

(٢) البقرة : ٢٥٦ .

(٣) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٨ ص ١١١ .

obeikandi.com

الوضعية ، غير السماوية ، في السند ، أمراً أفضل مما سواه ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب . . وهكذا أقرت الدولة بحرية جميع هؤلاء الرعايا ، المتدينين بكل ديانات الدنيا ومذاهبها ، وأمَّنتهم على « مللهم وشرائعهم » ، كما أمَّنتهم على « أنفسهم وأموالهم » في نظير ضريبة زهيدة وهي « الجزية » ، يدفعها القادرون على أداء واجب « الجندية » ، إذا منعت دواعي الأمن من اشراك غير المسلمين في القتال، أو إذا رغب هؤلاء في عدم الانخراط في الجيش . .

ولنا أن نتصور ، في امبراطورية مترامية الاطراف كهذه الامبراطورية ، ووسط رعية أغلبيتها العددية من غير المسلمين، وفي طول بلادها وعرضها تنتشر مؤسسات دينية قديمة ومراكز لاهوتية عريقة ومدارس للفكر الديني مرّت على نشأتها قرون وقرون . . ومارس أحبارها ورهبانها وعلماؤها الجدل والبحث والدرس ، وغدت لهم فيه تقاليد ومواريث . . وتسلحوا في عملهم هذا بأسلحة فكرية عديدة ، في مقدمتها منطق أرسطو وفلسفة اليونان وحكمة الهنود وتراث الفارسيين . . لنا أن نتصور وضع الاسلام والمسلمين ، وهم قلة ، في المحيط المتلاطم بالنظريات والأبنية الفكرية المركبة والمعقدة ، والمسلح ملاحوه بفكر لاهوتي قديم وعريق، وأيضاً بأدوات للجدل والحجاج ذات طابع عام، يتخطى خصوصيات الدين ومحليات الأمم والأقوام ، هي مواريث اليونان المنطقية والفلسفية . . وعندما نتصور ذلك ، علينا أن نتساءل : أي تحد ، خطير وعظيم ، ذلك الذي واجهه الاسلام والمسلمون ؟ ؟ ! . .

لقد كان المسلمون ، بالمدينة في صدر الاسلام ، يشكون من تعالي نفر من اليهود عليهم وشموخهم بأنوفهم لأنهم أهل الذكر وأصحاب الكتاب والعالمون بالتراث في الديانات . . وكان اليهود ، يومئذ فئة واحدة ، وقليلة ، ولم تكن معرفتهم بالكتاب ، حتى كتابهم ، بالتي تمثل تحدياً فكرياً ذا وزن أو خطر ـ ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴾![1] . . فما حال المسلمين في امبراطورية هم فيها الأقلون عدداً ؟ ! وتجاه كل ديانات السماء

(١) البقرة ٧٨ .

obeikandi.com

والأرض ؟ ! وفي مواجهة أعرق مؤسسات اللاهوت وفلاسفته ؟ ! وفي الصراع الذي تسلح فيه خصوم الاسلام بحكمة القدماء جميعاً ، وبمنطق أرسطو وفلسفة اليونان على وجه الخصوص ؟ ! . .

باليقين ، لقد واجه المسلمون يومئذ واحداً من أخطر التحديات التي واجهتهم بعد انجاز الفتوحات . . .

ولقد زاد من جدية هذا التحدي وخطره أن العرب المسلمين كانوا يسعون لبناء حضارة واحدة لرعية الدولة كلها ، على اختلاف الأديان والمعتقدات ، ويسعون كذلك إلى الاستفادة من المواريث الحضارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة في صنع المعالم الاساسية لهذه الحضارة الواحدة . . ومن ثم فان التواصل والتزامل والتفاعل مع أهل الديانات الأخرى هو أمر لا مفر منه ، بل هو واجب يجدّ إليه المسلمون ويسعون . . وفي هذا التلاحم والاتصال لا بد من أن تتصارع العقائد وتتحارب الأفكار . . وأيضاً فان المسلمين ، وإن كانوا لا يستخدمون القوة والدولة في فرض عقائدهم الدينية ، فهم في شوق ـ نابع من شوقهم للجنة ـ إلى نشر دينهم الحنيف بين ربوع كل تلك البلاد ، ومن ثم فلا بد من الجدل والصراع مع كل تلك الديانات ، وما لها من أسلحة ومؤسسات . .

ولن يستطيع المرء أن يدرك جدية هذا التحدي وخطره إلا إذا تمثل عدداً من الحقائق . . مثل :

* اعتزاز كل مؤمن، من أي دين، بعقيدته الدينية، وهذا إذا كان من الصفوة المستنيرة ، أما من عداها فانهم ، غالباً ، ما يتعصبون لما به يدينون ! . .

* استفادة أهل الأديان الأخرى من الحرية الدينية التي قررها الاسلام وألزم بها أهله تجاه الديانات الأخرى وأهلها . . وحتى ندرك إلى أي الحدود كانت هناك فرص حقيقية لهذه الحرية نشير إلى حقيقة قد تبدو غريبة ، ولكنها هي الحق والواقع ، وهي : **أن المجتمع العربي الاسلامي قد وفر ، في كثير من الأحيان ،**

obeikandi.com

لغير المسلمين ، قدرا من الحرية الدينية لم يتوفر لكثير من الفرق والتيارات الفكرية الاسلامية ؟ ! . . ذلك أن تراث المسلمين الديني كان يحض على الوحدة والاتحاد بين المسلمين ، ويدين الخروج والمروق عن وحدة الأمة ، ومن هنا ـ عندما اختلف المسلمون فرقا وأحزابا ـ زعم كل طرف أنه الأمة والفرقة الناجية ، واستحل اضطهاد سواه ، وتسنى للقوى ، ولمن بيده سلطان الدولة وجهازها ، أن يمارس قهر التيارات المعارضة . . هذا بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر . . على حين ظلت تعاليم الاسلام قاضية بحق أهل الأديان الأخرى في الأمن على « أنفسهم ومللهم وشرائعهم وأموالهم » ، وكذلك وصاياه بالاحسان إليهم ورعاية ذمتهم وجدالهم بالتي هي أحسن . . ظلت هذه الوصايا وتلك التعاليم مرعية دائماً ، أو في غالب الأحوال والأحيان . . فلم يحدث أن جرّد المسلمون سيوفهم ضد أصحاب الأديان الأخرى كي يدخلوهم إلى الاسلام ، على حين امتلأت صفحات تاريخهم ، وكذلك سنواته ، بالصراعات المسلحة بين الفرق والأحزاب والتيارات التي توزعت واستقطبت المسلمين ! . .

وإذا شئنا مثلا يشهد لهذه الحقيقة فان في موقف الخوارج ، وهم أشد الناس غيرة ـ بلغت حد التشدد المغالي ـ على الإسلام ، في موقفهم المثل الذي يشهد على ما نقول . . فلقد ظفرت جماعة منهم يوماً بمسلم ونصراني ، فقتلوا المسلم وتركوا النصراني ، بل أوصوا به خيراً قائلين : « احفظوا ذمة نبيكم » ! . .(1) وهم يجدون في القرآن ، بزعمهم ، ما يحل لهم دم رجل صالح مثل عبد الله بن خباب ، لأنه خالف رأيهم في علي بن أبي طالب بعد أن قبل « التحكيم » في صراعه مع معاوية ، ورأيهم في عثمان بن عفان في سنوات حكمه الست الأخيرة ، فأمسكوا عبد الله بن خباب ، وفي عنقه مصحف ، وقالوا له : « ان هذا الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك ! » . . وقتلوه . . وكان على مقربة منهم بستان نخل لرجل نصراني ، فذهبوا يبتاعون منه بلحاً ، فعرض عليهم البلح دون مقابل ، فأبوا ذلك ، واستنكروه قائلين : « ما كنا لنأخذه إلا بثمن ! » فعجب النصراني وتعجب قائلا : « ما أعجب هذا ! . . أتقتلون مثل

---

(1) المبرد (الكامل) ـ باب الخوارج ص ٥٠ . طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ .

obeikandi.com

عبد الله بن خباب ، ولا تقبلون منا جني نخلة ؟! »[١] . . ومثل ذلك قصتهم مع امام المعتزلة واصل بن عطاء ، فلقد أدركته جماعة منهم ، وهو في عدد من أصحابه ، فلما استشعر الخطر طلب من أصحابه أن يدعوا له أمر التصرف والحوار مع الخوارج ، فدار بينهم وبينه حوار استهلوه :

ـ ما أنت وأصحابك ؟

ـ مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده !

ـ قد أجرناكم !

ـ فعلمونا !

فجعلوا يعلمونهم مبادئهم وأحكامهم . . ثم قالوا لهم :

ـ أمضوا ، مصاحبين ، فانكم اخواننا !

ـ ليس ذلك لكم ، فالله يقول : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾[٢] ، فأبلغونا مأمننا ! . .

فنظر الخوارج بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا :

ـ ذاك لكم !

فساروا بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن . . . ؟ ![٣]

فالحفاظ على المشركين ، وابلاغهم مأمنهم الذي يريدون . . والعدل مع النصراني في حبات من البلح . . والقتل لمسلم صالح مثل عبد الله بن خباب ! . . ففي المشركين نزل قرآن لا سبيل إلى تأويله . . والنصراني هو ذمة النبي بنص الحديث . . أما عبد الله بن خباب ، حامل المصحف في عنقه ، فلقد تأولوا القرآن حتى زعموا « ان هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك!» . .

---

(١) المصدر السابق ٥٠ ، ٥١ .

(٢) التوبة : ٦ .

(٣) (الكامل) : للمبرد . ص ٨ ، ٩ .

obeikandi.com

إلى هذا الحد بلغ الاسلام ، وأيضاً بلغ المسلمون في صيانة حرية أهل الديانات الأخرى في الاعتقاد ، وممارسة شعائر الاعتقاد . . ولقد كان طبيعياً أن يتيح هذا الوضع رجحان الكفة لهذا المحيط من العقائد غير الاسلامية وهذا الخضم من أصحابها في الصراع الفكري ضد الاسلام والمسلمين . .

ولقد زاد من خطورة هذا التحدي وجديته ان المسلمين لم يكن لهم عهد بالكثير من أدوات الجدل والاحتجاج التي برع فيها أبناء تلك الديانات ، ولم تكن لهم خبرة ولا دربة ولا ممارسة في أدوات المنطق والفلسفة منها بالذات . .

صحيح ان القرآن فيه المحكم وفيه المتشابه . . والمتشابه منه لا يدرك إلا بنمط من الفكر العقلي المتأمل ، وهو نمط إلى صناعة الفلسفة ونهج الفلاسفة قريب . . وصحيح أن فيه اشارات تستوقف الصفوة وتلفت انظار الراسخين في العلم كي يبحثوا عن ما استكن وراء ظواهر النصوص ، وهي اشارات ومواطن تمثل بداية الطريق لبناء الفلسفة وتحصيل مناهجها . . ولكن حياة العرب البسيطة ، في شبه الجزيرة ، قبل اتمام الفتوحات الكبرى ، ووضوح الغايات وبساطة الوسائل ، وجو التسامي الديني الذي صنعته حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك ، وغيره مثله ، قد وقف بالحياة العقلية العربية الاسلامية ، حتى ذلك الحين ، عند الاحتكام في المشكلات ، غالبا ، إلى النصوص والمأثورات . . وهم جميعاً مؤمنون ، يقدسون هذه النصوص ويجلُّون هذه المأثورات، ومن ثم فإن تلاوة النص حاسمة في الاقناع والاقتناع . . ولم تكن الحياة قد طرحت عليهم ، بعد ، تلك المشكلات التي لا تجد حلولها في النصوص والمأثورات ، ولا في القياس على هذه النصوص والمأثورات . .

أما بعد أن تمت الفتوحات الكبرى . . وقامت الامبراطورية . . فلقد وجد المسلمون أنفسهم أقلية دينية في محيط من المتدينين بكل ديانات السماء والأرض ، يخوضون صراعاً فكرياً قاسياً ضد مؤسسات كهنوتية وتيارات لاهوتية ذات تراث عريق في الجدل الفكري والصراعات الدينية ، ومسلحة بما هو أكثر من « اللاهوت » وعلومه ، مسلحة بحكمة القدماء ، ومنطق أرسطو وفلسفة اليونان . . على حين كانت أدوات المسلمين في الصراع هي النصوص

والمأثورات ، وهي أدوات لا تفيد إلا إذا كان الخصم مؤمناً بها ، ومصدقا بقدسيتها . . فإذا حاور المسلم أخاه ، فوارد في الحوار أن يحسمه أحدهما بآية من آيات القرآن الكريم ، لأن الآخر مؤمن بأن هذا القرآن قد بلّغه محمد إلى أمته ، ومؤمن بأن محمداً رسول ، وأنه رسول الله . . فالقرآن هنا ثمرة ، والايمان به كحجة مترتب على الايمان بنبوة محمد ورسالته ، والايمان بالإله الواحد الذي أوحى إليه بالقرآن . . أما الذين لا يؤمنون بشيء من هذه المقدمات ، فغير وارد ولا معقول أن نجادلهم ونحاججهم ، فضلا عن أن نفحمهم بآيات ونصوص لا يؤمنون هم ، اصلا ، بأن لها تلك القدسية والحجية التي نعتقدها نحن فيها . .

وهنا كان المأزق ، وكان التحدي عندما انعدمت « الأدوات المشتركة » للصراع الفكري بين المسلمين وخصومهم الفكريين . . وزاد الأمر حرجا رجحان كفة هؤلاء الخصوم ، لأنهم كانوا يملكون ، غير « اللاهوت » أدوات المنطق والفلسفة ، وهي أدوات عالمية ، لا تختص بدين أو حضارة ، وصالحة للصراعات الفكرية جميعاً ، على حين كانت أدوات « القراء والفقهاء » المسلمين هي من النوع الذي لا يؤتي ثماره خارج اطار المؤمنين بشريعة الاسلام . .

وإذا شئنا قصة من قصص صراعات الفكر في ذلك العصر تجسد لنا عمق ذلك التحدي وجديته وخطره فان قصة المناظرة التي دارت بين قاضي بغداد وزعيم طائفة « السمنية » ببلاد السند دليل جيد البرهنة على ما نقول . .

فلقد زعم « السمني » ـ وطائفته تنكر الرسالات السماوية ، وترى أن أصحابها قد سببوا الحروب الدينية وأوجدوا العداوة بين الناس ! ـ زعم في حديثه إلى مليكه ـ ملك السند ـ أن دين الاسلام لابقاء له إلا بقوة السيف وسلطان الدولة ، وان أهله يعجزون عن اثبات صدقه بالعقل والمنطق . . بل ودعا مليكه إلى أن يرسل إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣هـ ـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩م) فيتحداه أن يبعث من علماء الاسلام من يناظر زعيم « السمنية » ، على أن يتبع المغلوب عقيدة الغالب ! . . فلما جاءت رسالة الملك إلى الرشيد بعث إليهم بقاضي بغداد . . واستبشر زعيم السمنية خيراً عندما

علم أن القاضي من « الفقهاء » وليس من « الفلاسفة ـ علماء الكلام » ! . . وهناك دارت المناظرة بين زعيم السمنية وبين القاضي الفقيه ، على هذا النحو :

السمني : أخبرني عن معبودك ، هل هو قادر ؟

القاضي : نعم . .

السمني : فهل هو قادر على أن يخلق مثله ؟ !

القاضي : هذه المسألة من الكلام ـ (علم الكلام) ، والكلام بدعة ، وأصحابنا ينكرونه !

السمني : ومن أصحابك ؟

القاضي : محمد بن الحسن ، وأبو يوسف ، وأبو حنيفة . .

وعند هذا الحد من المناظرة التفت زعيم السمنية إلى مليكه وقال له : « قد كنت أعلمتك دينهم ، وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم ، وغلبتهم بالسيف ! . . « فصادق الملك على قوله ، وبعث إلى الرشيد رسالة قال فيها : « اني كنت ابتدأتك ، وأنا على غير يقين مما حكي لي ، والآن قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضي ! » . .

ففي هذه القصة يتجسد التحدي الذي فرضته على الاسلام ، وعلى دولته وحضارته ، تلك الديانات والمذاهب المسلحة بأدوات المنطق والعقل ، عندما استخدمت في صراعها معه تلك الأدوات ، ـ بما فيها هذا « المنطق الشكلي » ـ على حين وقف الفقهاء عند النصوص والمأثورات التي لا تلزم الحجة إلا من كان ، سلفا ، متدينا بهذا الدين . .

ولقد استاء الرشيد ، وغضب ، وثارت ثائرته لهذا الذي حدث ، ولما قرأ في رسالة ملك السند . . وفي هذه الثورة رأيناه يعبر عن هذا التحدي الذي يواجه الاسلام والمسلمين بتساؤله له قائلا : « أليس لهذا الدين من مناظر عنه ؟ ! .

ويستكمل الرواة وقائع القصة فيقولون ان نفرا من حاشية الرشيد لفتوا نظره إلى أن من يناظر ، عن الاسلام ، مثل هؤلاء الخصوم لا بد وأن يكون عارفا بأدواتهم في الجدل والاحتجاج ، أي عالماً بالفلسفة والمنطق ، وأن للاسلام وللمسلمين علماءهم في هذا الميدان ، وهم علماء الكلام ، ولكنهم ـ وكانوا هم المعتزلة يومئذ ـ لعدائهم للشعوبية التي غلبت على الدولة العباسية في سنواتها الأولى ، كانوا مبعدين ، بل وكان أئمتهم وأعلامهم في السجون . . فبعث الرشيد فأحضر عدداً منهم ، وعرض عليهم مناظرة السمني مع قاضي بغداد ، فقال له واحد من شباب علمائهم ، هو معمر بن عباد (٢١٥هـ-٨٣٠م): يا أمير المؤمنين، إن سؤال السمني ـ هل يقدر الله أن يخلق مثله ؟ ـ سؤال محال، لأن الله قديم بالضرورة ، والمخلوق حادث بالضرورة . . والحادث لا يمكن ان يكون مثل القديم ، فلقد أخطأ السمني عندما سأل هذا السؤال ! . .

وبمقدار قوة البساطة في اجابة معمر بن عباد . . كانت ضخامة العجز عند قاضي بغداد ! . . وأدرك الرشيد يومئذ أن الحديد لا يفلّه إلا الحديد . . ولن يناظر الفلاسفة إلا المتكلمون ، فلاسفة الاسلام ، فبعث بعدد من علماء المعتزلة ، وعلى رأسهم معمر بن عباد ، لمناظرة زعيم السمنية ، فناظروه وانتصروا عليه . .[1]. وبدأت الدولة العباسية تقترب من علماء الكلام وتقرب المعتزلة ، وخاصة بعد انحسار المد الشعوبي بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ-٨٠٣ م) . .

لكن إدراك العرب والمسلمين لهذه الحقيقة لم يبدأ بأدراك الرشيد لها . . فلقد سبق ذلك عهد الرشيد ، بل ودولة بني العباس بزمن غير قصير . . وكانت نقطة البدء عندما استشعرت هذه الأمة جدية التحدي وخطره ، ساعة واجهت بفكرها الشاب وعقيدتها البسيطة النقية مواريث الأمم التي أصبحت تشاركها في الدولة ، مواريثها في الفلسفة واللاهوت والمنطق وأدوات الصراع ذات الطابع العقلي . . منذ تلك اللحظة غاصت روح هذه الأمة إلى العمق ، وفتشت عن

---

(١) قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ . تحقيق فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م .

تراثها الأولي والبسيط في الحكمة ، ويممت وجهها شطر قرآنها الكريم ، وانخرط نفر من طلائع أبنائها على درب التأمل الفلسفي ، وتجاوزوا ظواهر النصوص إلى ما ورائها ، واجتازوا الحدود التي توقف عندها الفقهاء والنصوصيون . . فبدأت تظهر ، منذ ذلك التاريخ المبكر ، قسمات البناء الفكري الذي تمثلت فيه عبقرية هذه الأمة في الفلسفة الإلّهية بالذات ، وهو علم الكلام . .

وإذا كان هناك اتفاق على أن عهد العرب بالترجمة قد بدأ بالأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ ـ ٧٠٨م) فان الاتفاق قائم على أن ما ترجمه العرب يومئذ قد اقتصر على بعض « علوم الصنعة » التي تطلبتها الحياة « العملية » ، مثل الكيمياء والطب والنجوم . . وعلى أن بداية عهد العرب « بالفلسفة » ، كما عرفها اليونان، وطلائع وعيهم بأرسطو، كفيلسوف إنما جاء على يد أول فلاسفة العرب المسلمين : الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق (٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م) . .(١) أما ما قبل هذا التاريخ فان فلسفة هذه الأمة وابداعها الخاص في العلوم العقلية تمثَّل في « علم الكلام » . . وهو العلم الذي بدأ مبكراً ، ومنذ أن واجهت هذه الأمة ذلك التحدي على جبهة الفكر ، والفكر الديني على وجه الخصوص .

فقبل الكندي بأكثر من قرن من الزمان بدأ يتبلور التيار العقلاني للعرب والمسلمين . . وروت أوثق المصادر أن رجلاً عربياً من قبيلة جهينة هو معبد الجهني (٨٠هـ ٦٩٩م) قد تزعم ، في البصرة تياراً فكرياً بدا غريباً عن المألوف والشائع في ذلك الحين ، فلم يقنع أصحاب هذا التيار بما تحصل من ظواهر النصوص ، فأخذوا في التأمل الفلسفي ، وذهبوا يغوصون وراء ظواهر النصوص والمأثورات . ولقد عرض « يحيى بن يعمر » أمر هذا التيار الفكري على الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب ٧٣ هـ ـ ٦٩٢م) قائلاً : « أنه قد ظهر قبلنا ـ (عندنا) ـ ناس يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم!» أي يطلبونه ،

(١) ابن النديم (الفهرست) ص ٢٤٢ . طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م . والجاحظ (البيان والتبيين) ج ١ ص ٣٢٨ . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م . و : أوليري (مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب) ص ٢٦٥ ، ٢٤١ ، ترجمة د . تمام حسان . طبعة مكتبة الانجلو . القاهرة .

ويتتبعونه ، ويبحثون عن غامضه ، ويستخرجون خفيَّه ، ويغوصون إلى القاع ، فيأتون منه بالغريب ! . . [1]

فإذا كان عبد الله بن عمر قد توفي سنة ٧٣هـ على حين قتل معبد الجهني ، بعد اشتراكه في احدى الثورات ضد الحجاج بن يوسف سنة ٨٠هـ فاننا نستطيع أن نؤرخ بمنتصف القرن الهجري الأول لنشأة هذا التيار الفلسفي الاسلامي ، تيار علم الكلام . . وهو التيار الذي تمثل في المعتزلة ، فرسان العقلانية العربية الاسلامية ، والذي كان معبد الجهني واحداً من طلائعهم السابقين على هذا الطريق ؛ فلقد رووا انه كان أول من دعا بالبصرة إلى مذهبهم في حرية الانسان واختياره . . [2] أي أن هذا التيار قد بدأ يتبلور منذ أن استشعرت هذه الأمة ، على درب حياتها الفكرية ، الخطر الذي تمثل في تسلح خصومها بأسلحة عقلانية لا عهد لها بمثلها ، فكان في هذا التيار العقلاني الاسلامي الرد الايجابي على الخطر والتحدي اللذين فرضهما عليها هؤلاء الخصوم . .

ورغم البداية المبكرة لهذا التيار ، وسبقه على ترجمة انسانيات اليونان ، وخاصة فلسفتهم ، بل وسبقه على تمثل العرب المسلمين للكنوز الفكرية في المواطن التي افتتحوها . . إلا أن هذا التيار لم يبدأ من فراغ . . فهو قد بدأ فسلك طريق التأمل في العقائد والكون والمأثورات والنصوص ، وشرع « يفلسف » كل ذلك ، واستعان على ذلك كله بوصايا القرآن والسنة التي تعلي من شأن العقل كأداة للبرهنة والهداية وثق فيها الدين كل الثقة وفوَّضها كل التفويض ، ودعا إليها الراسخين في العلم كسبيل لا يستطيع أن يسلكه عامة الناس . .

* ولنبدأ بالقرآن الكريم، وما تضمنته آياته الكريمة من انتصار للعقل والعقلانية ، يدعو ، ولا شك ، أمة الاسلام إلى أن يكون لها على هذا الدرب

---

(١) (صحيح مسلم) وكذلك (سنن الترمذي) و (سنن أبي داود) .

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٥ . .

بناؤ ها الفكري الذي تباهي به الأمم وتصد بواسطته تحديات الخصوم . .

لقد تميزت شريعة الاسلام ، وامتازت ، عن الشرائع التي سبقتها بقسمتها العقلانية ، واعلائها سلطان العقل ، لا في أمور الدنيا فحسب ، بل وفي الكثير من أمور الدين . . وهي في ذلك قد جاءت متسقة مع المرحلة التاريخية التي جاءت فيها ، مرحلة بلوغ الانسانية سن رشدها ، وتجاوزها عهد الطفولة الانسانية ، ومناسبة كذلك لكون هذه الشريعة هي ختام شرائع السماء الموحى بها إلى الانسان ، ومن هنا كانت ضرورة أن تفتح الباب واسعاً للعقل الانساني كي يمارس دوره في عصور قادمة ستشهد اشتداد عوده واتساع مجالاته أكثر فأكثر ، وعلى نحو لم يسبق له مثيل . .

ولن يقلل من موضوعية هذه الحقيقة أو يقدح فيها أن تراثنا الديني والحضاري لم يشتمل على مصطلح « **الفلسفة** » ، التي تندرج تحتها المباحث التي تعلي سلطان العقل ، وتعتمده أداة في البرهنة والنقض والاثبات ، ذلك أن تراثنا قد استخدم مصطلح « **الحكمة** » ، في أغلب الأحيان ، للدلالة على ما يدل عليه مصطلح « الفلسفة » من معاني ومضامين . .

ومن هنا ، فان انظارنا لا بد وأن تلتفت إلى ذلك الموقف القرآني الذي يعلمنا ، في أكثر من موضع ، وفي آيات بلغت التسع عشرة آية ، أن مَا أَوْحى الله به إلى رسوله ليس « **الكتاب** » فقط ، وإنما « **الحكمة** » أيضاً ؟ ! . . أي أن الاسلام لا يركن فقط إلى « النص والنقل » ، وإنما يعتمد أيضاً على « العقل وبرهانه » . . ولا نعتقد أن شريعة سبقت شريعة الاسلام قد جعلت « الحكمة » ـ بهذا المعنى ـ جناحاً من جناحيها اللذين طار بهما وحي السماء إلى الانسان ! . . .

فابراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، يدعوان ربهما أن يرسل في العرب رسولاً منهم ـ هو محمد ، صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ **يعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ . .[1] والله يتحدث إلى المسلمين عن رسالة نبيه ومهامه ، فيقول

(١) البقرة : ١٢٩ .

obeikandi.com

لهم : ﴿ . . ويعلمكم الكتاب **والحكمة** ﴾ . . [1] ويعرفهم ماهية وحيه إليهم فيقول : ﴿ وإذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب **والحكمة** . . ﴾ [2] . . ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب **والحكمة** . . ﴾ [3] وفي معرض تعداد الله لنعمه على رسوله يقول له : ﴿ . . وأنزل الله عليك الكتاب **والحكمة** وعلمك ما لم تكن تعلم . . ﴾ [4] وفي معرض تعداد نعمه على العرب يقول سبحانه : ﴿ هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب **والحكمة** وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . . [5] وهو يتحدث ، في القرآن ، إلى نساء النبي ، فنعلم أن ما كان يعلمهن الرسول اياه لم يكن « نقلاً » و « كتاباً » فقط ، بل « حكمة » أيضاً : ﴿ . . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله **والحكمة** . . ﴾ [6] . . **وما أوحاه الله إلى نبيه ليس « نقلاً » فقط ، بل و « حكمة » كذلك : ﴿ . . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾** . . [7]

وأخيراً يضع القرآن الكريم يدنا على السر الذي جعل « الحكمة » بعضاً من وحيه . . فهو ، كما أشرنا ، قد جاء إلى انسانية قد بلغت سن رشدها ، وتجاوزت عهد طفولتها ، ومن ثم فان من هذه الانسانية من يناسب هديهم « برهان العقل ، أي الحكمة » ، ومنهم من يناسب هدايته أسلوب « الجدل والحجاج » ، ومنهم جمهور يكفي في هديهم « الخطابة والوعظ والارشاد » . . فمستويات الناس في المدارك العقلية والاستعدادات الفطرية والمكتسبة متفاوتة ، ومن ثم فان سبل هدايتهم متفاوتة كذلك بتفاوت هذه المستويات . . والقضية

---

(١) البقرة : ١٥١ .
(٢) البقرة : ٢٣١ .
(٣) آل عمران : ١٦٤ .
(٤) النساء : ١١٣ .
(٥) الجمعة : ٢ .
(٦) الأحزاب : ٣٤ .
(٧) الاسراء : ٣٩ .

التي طرحها أبو الوليد بن رشيد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) عندما قال : ان « الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف :

صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا ، وهم الخطابيون ، الذين هم الجمهور الغالب . .

وصنف هو من أهل التأويل الجدلي ، وهؤلاء هم الجدليون ، بالطبع فقط ، أو بالطبع والعادة . .

وصنف هو من أهل التأويل اليقيني ، وهؤلاء هم البرهانيون ، بالطبع والصناعة ، أعني صناعة الحكمة »[١] !

هذه القضية قد فصل فيها القرآن الكريم من قبل عندما حدد للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، سبل دعوة الناس إلى الدين ، فإذا هي سبل ثلاث ، وفق أصناف هؤلاء الناس ، وإذا بـ « الحكمة » واحدة من هذه السبل الثلاث : ﴿ ادع إلى سبيل ربك **بالحكمة** والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . . ﴾[٢] .

هكذا ، وعلى هذا النحو ، احتلت « الحكمة » مكانها في القرآن الكريم . . وكان ذلك زادا ومنطلقاً وتراثاً لطلائع هذه الأمة على درب الفلسفة وطريق « علم الكلام » . .

والسنة النبوية هي الأخرى اتساقاً مع القرآن الكريم ، قد حفلت بعشرات الأحاديث التي أعلت من شأن « الحكمة » وزكتها طريقاً للمعرفة وهداية الانسان . . فنحن نطالع أحاديث الرسول التي تقول : « نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة »[٣] . . و « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »[٤] . . . وإذا كانت

---

(١) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٥٨ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٢م .

(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) رواه الدارمي .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه .

obeikandi.com

« النبـوة » صدق واصـابة بـالوحي ، فـان « الحكمة » ـ الفلسفـة ـ هي الصـدق والاصابة بالبرهان العقلي والتأمل الفلسفي ، والرسول يحدد هذين الطريقين من طرق الحق والاصابة عندما يقول : « . . والحكمة : الاصابة في غير النبـوة »(١) وهو، لذلك، يضم عبدالله بن عباس (٣ ق. هـ ـ ٦٨ هـ ـ ٦١٩ ـ ٦٨٧ م إلى صدره، ويـدعو لـه قائـلاً : « اللهم علمـه الحكمـة »(٢) . . ويعلمنـا أن « الحكمـة » لا تصلح إلا لأهلهـا . . « ولا تحدث الحكمـة للسفهـاء »(٣) ! لأنهم ، فضـلا عن عجزهم عن الارتقاء إلى بـراهينها ، فهم يحسـدون أهلها ، إذ « لا حسـد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه عـلى هلكته في الحق ، وآخـر آتاه الله حكمـة فهـو يقضي بهـا ويعلمهـا » . .(٤) ولكنـه يـوصي أهلهـا بـالسعي لتحصيلهـا : « عليك بالحكمة ، فان الخير في الحكمة »(٥) . . و « ليس هدية أفضل من كلمة حكمة »(٦) .

ولقد كان هذا الهدى النبوي ، في الحكمة ، زادا وتـراثا ومنـطلقا لـطلائع علماء الكلام على الدرب الذي سلكوه لبناء فلسفـة هذه الأمـة ، التي تتمثل فيهـا نظرتها للكون ، ورؤ يتها المتميزة لقضايا الدين والدنيا ، والتي كانت لها سـلاحاً نازلت به خصومها في الفكر والدين . .

والـذين يتأملون بعض صفحـات تـراث العـرب القـديم ، مـا سبق منـه الاسلام وما أبدعوه في عصر النبوة والصحابة ، لن يعـدم لهؤلاء الأسلاف تـراثا في هـذا الميدان . . ميـدان « الحكمـة » . . . فلقـد كـان للعـرب في جـاهليتهم حكـماء ، من مشـاهيـرهم : قس بن سـاعـدة الايـادي (٢٣ ق . هـ ـ ٦٠٠م) وأكـثم بـن صيفي (٩هـ ـ ٦٣٠ م) . . ومن يقـرأ (نهج البـلاغـة) لعـلي بن أبي

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه الدارمي .
(٤) رواه البخاري .
(٥) رواه الدارمي .
(٦) رواه الدارمي .

طالب لا بد واجد نفسه أمام « حكمة وفلسفة » لعل نوعية الجمهور وبساطة الحياة والناس قد منعتها أن تظهر كاملة ومفصلة إلى الناس ! . . وغير علي بن أبي طالب نجد ذلك الحكيم أبا ذر الغفاري (٣٢هـ-٦٥٢م) وهو الذي وصل إلى عقيدة التوحيد ، بالتأمل الفلسفي ، وعبد الله الواحد وصلى له ، قبل ظهور الاسلام بسنوات ثلاث . . وهو الذي أشار علي بن أبي طالب إلى ما عنده من « حكمة » حجبها نقص استعداد الجمهور ، فقال : « لقد وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئا ! . .[1] وبشير بن كعب يشير إلى أن ذلك العصر ، عصر الصحابة ، كانت فيه صحف ومدونات في الحكمة ، فقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ - ١١٨ هـ-٦٨٠- ٧٣٦م) يروي فيقول : « سمعت أبا السوار يحدِّث أنه سمع عمران بن حصين يحدِّث عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الحياء لا يأتي إلا بخير » . . فقال بشير بن كعب : **انه مكتوب في الحكمة** : أن منه وقارا ، ومنه سكينة ، ومنه ضعفا ! . . فقال عمران : احدِّثك عن رسول الله ، وتحدِّثني عن **صحفك** ؟ ![2] . . فمن الصحابة ، اذن ، من كانت لديه مدونات وصحف في « الحكمة » ! . . الأمر الذي يؤكد أن بداية طلائع المتكلمين على هذا الدرب لم تكن من لا شيء ولا من فراغ . . فهم عندما تجاوزوا ظواهر النصوص والمأثورات ، استجابة لحاجات الأمة التي فرضت عليها التحديات في الصراع الفكري والعقائدي إنما كانوا يستجيبون ، أيضاً ، للنهج القرآني الذي جعل الحكمة سبيلاً من سبل الهدى والإرشاد ، وللسنة النبوية التي أعلت قدرها . . بل وينفِّذون وصية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عندما علم أمته أن من يرد منهم الوقوف على اسرار القرآن ومكنوناته فليتجاوز ظاهر نصوص آياته ، وليقلب هذا الظاهر ، وصولاً إلى الأعماق : « من أراد العلم فليثوِّر القرآن » و« أثيروا القرآن ، فان فيه خبر الأولين والآخرين » ![3] . .

---

(١) انظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٨ . طبعة بيروت ، الثانية ، سنة ١٩٧٤ م .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم وابن حنبل .

(٣) انظر مادة « ثار » في (لسان العرب) لابن منظور .

هكذا كانت البداية . . وتلك كانت الدوافع . . من قبل أن تعرف هذه الأمة تراث اليونان في الفلسفة ، بل ومن قبل أن تعرف لغتها مصطلح « الفلسفة . . ومن قبل أن يتمثل عربها المسلمون الأول تراث البلاد المفتوحة في هذا الميدان . .

وغير الموقف القرآني ، وموقف السنة المنحازين « للحكمة » . . فلقد أعان طلائع « الحكماء ـ المتكلمين » على مهمتهم هذه موقف القرآن والسنة من « العقل » . . فمأثوراتها ونصوصها لم تقف فقط عند « النقل » ، بل لقد أعلت من شأن « العقل » ، وجعلت له سلطانا أي سلطان ! . .

وإذا كان « العقل » في لغة العرب : هو التثبت في الأمور ، و« العاقل » : هو الجامع لأمره ورأيه . . فلقد جعلوا العقل ، أيضاً ، القوة التي يتميز بها الانسان عن الحيوان . . وكذلك جعلوه حصن هذا الانسان ، وقالوا : ان هذا هو السبب في تسمية « الحصن » بـ « المعقل » ! »[1] . . والقرآن يعرض لمادة « العقل » في تسع وأربعين موطناً من آياته الكريمة ، وفيها يجعله مناط التكليف ، والمسؤولية ، ومن ثم مناط تحقق انسانية الانسان ! . . وأيضاً ، وذلك هام وجدير بالتأمل ، فان القرآن يصنع مع « العقل » صنيعه مع « الحكمة » ، عندما يحدثنا عن أنه سبيل متميز عن سبيل « النقل » والنص والمأثور . . فهناك ما هو مسموع من الأدلة « النقلية » ، وهناك ما هو « معقول » من البراهين الحكمية الفلسفية . . وأهل النار عندما يندمون في الآخرة يتذكرون كيف قصَّروا في السعي على كل من الطريقين ، طريق « النقل » السمع ـ وطريق « العقل » ، فيقولون : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير** ﴾ . .[2] والقرآن يقرِّع المشركين الذين عجزوا عن الاهتداء بواحد من السبيلين ، « العقل » و « النقل » ، رغم الآيات الكونية الناطقة الشاهدة ، فيقول : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون**

---

(١) المصدر السابق . مادة « عقل » . وانظر كذلك هذه المادة في (معجم ألفاظ القرآن الكريم وضع مجمع اللغة العربية. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

(٢) الملك : ١٠ .

بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ . .[١] .

وغير الآيات التي تتحدث عن « **عمل العقل** » بلفظه ، يتحدث القرآن عن « عمله » مستخدماً اسماً من أسمائه ، وهو « اللب » . . **والعرب يقولون ان لغتهم قد أطلقت على « العقل » كلمة « اللب » لأنه « يمثل جوهر الانسان وحقيقته » !**[٢] . . ويأتي ذكر هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم في ست عشرة آية من آياته ، تتحدث عن أولي الألباب ، الذين من سماتهم وصفاتهم الذكر والتذكر والفكر والتفكر في آيات الله وسننه التي أودعها هذا الكون وطلب من الانسان ، ذي اللب ، أن يتفكر فيها . .

وكما تحدث القرآن عن « العقل والتعقل » تحت مصطلح « اللب » ، كذلك صنع عندما تحدث عنه، في آيتين ، تحت مصطلح « النهى » ـ بضم النون مشددة ، وفتح الهاء ـ . . و « النهى » جمع ، والمفرد : «نهية»، و « النهية » : « العقل » ، وسمي بذلك لأن استخدامه يصل بالانسان إلى نهاية المأمور به ، والحدود التي لا ينبغي تجاوزها[٣] . . . فهو الزمام ، والقائد ، وهو الذي يحدد الحدود ! . .

ولنفس المعاني التي دلت عليها مصطلحات « العقل » و « اللب » و« النهية » جاءت مصطلحات « التدبر » ـ في أربع آيات ـ و « الاعتبار » ـ في سبع آيات ـ . . فالله يطلب منا ، لا أن « نسمع » القرآن فقط ، بل وأن « **نتدبر** » ما نسمع من آياته : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟ ![٤] . . ﴿ أفلم يدبروا القول)[٥] ؟ ! . . ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ . .[٦] وكذلك « الاعتبار » الذي هو : الاستدلال بالشيء على الشيء ، والتدبر ، والنظر ، والقياس ! . .[٧] .

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) (معجم ألفاظ القرآن الكريم) ج ٢ ص ٥٦٠ .

(٣) (لسان العرب) مادة « النهى » . وانظر كذلك (معجم ألفاظ القرآن الكريم) ج ٢ ص ٧٦٩ .

(٤) النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤ .

(٥) المؤمنون : ٦٨ .

(٦) ص : ٢٩ .

(٧) (لسان العرب) مادة « عبر » .

obeikandl.com

أما السنة النبوية فان حديثها عن العقل ، واعلاءها لشأنه حديث طويل . . فالامام الغزالي يروي في كتابه (إحياء علوم الدين) قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله : العقل ، فقال له : أَقْبِل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر فأدبر. ثم قال عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت أكرم علي منك ، بك آخذ وبك اعطي ، وبك أثيب ، وبك أعاقب » . .[1].

وأنس بن مالك يروي فيقول : « أُثني على رجل عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بخير ، فقال : كيف عقله ؟ . . قالوا : يا رسول الله ، ان من عبادته . . ان من خُلقه . . ان من فضله . . ان من أدبه . . فقال : كيف عقله ؟ ! . . قالوا : يا رسول الله ، نثني عليه بالعبادة ، وتسألنا عن عقله ؟ ! . . فقال رسول الله : ان الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم » . .

وابن عباس يروي فيقول : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « لكل شيء آلة وعدة ، وان آلة المؤمن العقل . ولكل شيء مطية ، ومطية المرء العقل . ولكل شيء دعامة ، ودعامة الدين العقل . ولكل قوم غاية ، وغاية العباد العقل . ولكل قوم داع ، وداعي العابدين العقل . ولكل تاجر بضاعة ، وبضاعة المجتهدين العقل . . ولكل أهل بيت قيم ، وقيم بيوت الصديقين العقل . ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل. ولكل امرىء عقب ينسب إليه ويذكر به ، وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل . ولكل سفر فسطاط ، وفسطاط المؤمنين العقل . . » .

وإذا كان ابن عباس قد روى قول الرسول: « ودعامة الدين العقل» . . فان علي بن أبي طالب عندما سأل النبي عن سنته ؟ كان من جوابه له قوله ، صلى الله عليه وسلم : « . . والعقل أصل ديني » ؟ ! . .

وهنا يفتح هذا القول وهذا الموقف لهذه الأمة فتحا جديدا ، ويسلك بها

---

(١) الغزالي (احياء علوم الدين) ج ١ ص ١٤٢ . طبعة دار الشعب القاهرة .

طريقا لم يسلكه من قبلها أهل أي دين من الأديان ! . .

فأهل العقل الذين تديَّنوا بما سبق الاسلام من شرائع دينية قد استخدموا « العقل » وبراهينه فيما هو خارج عن عقائد الدين وأصوله ، ولم يعهد في شريعة من تلك الشرائع استخدام « العقل » في تحصيل « الايمان » ، وإنما وقفت جميعها عند « المعجزات » والخوارق والنصوص والمأثورات سبلا لتحصيل الايمان . . وهذه الحقيقة يؤكدها القديس أنسلم Anselme (١٠٣٣ ـ ١١٠٩م) ، رئيس أساقفة كنتربري ، بانجلترا ، وأحد مؤسسي الفلسفة المدرسية ، عندما يقول : « يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك ، بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت فليس الايمان في حاجة إلى نظر عقل » ؟ ! . .[١] وحتى « اللاهوتيين » الذين تصدوا للاسلام وأهله بأسلحة المنطق الأرسطي وفلسفة اليونان ، فأنهم إنما كانوا يدافعون بأدوات العقل عن بناء فكري لاهوتي منعوا استخدام العقل في تحصيل عقائده وأصوله ، فهم قد استعانوا بالعقل في الدفاع عن بناء غير مؤسس على العقل ، وكان مثلهم مثل المجتمع الذي أوهن الفساد عزمه وأوهى من دعائمه ، ومع ذلك فإن له جيشاً ظاهر العزم وبادي القوة يدفع عنه المغيرين ! . .

ولم يكن ذلك حال العرب المسلمين عندما بدأ سعيهم على هذا الطريق . . نعم كانوا قلة عددية . . وكانوا في بدء مسعاهم على درب الحكمة والفلسفة وعلم الكلام . . ولكنهم انطلقوا من دين العقل أصله . . فالألوهية هي أصل الدين وجوهره وبدايته . . وتحصيل الايمان بالله لن يتأتى بواسطة « النص » الموحى به ، لأن التصديق بالنص فرع عن التصديق بالرسول والتصديق بالرسول فرع عن التصديق بالذي أرسل هذا الرسول ! . . ومن ثم فلا بد من سبيل آخر ، غير « النقل » لتحصيل الايمان بالألوهية ، التي هي أصل أصول الدين . . وهذا السبيل عند المسلمين ، دون سواهم ، هو « العقل » ، حتى لقد غدا ذلك امراً مقرراً . . لا عند الخاصة ، فقط بل وعلى

---

(١) (الأعمال الكاملة للأمام محمد عبده) ج ٣ ص ٢٦٢ .

ألسنة الجمهور والعوام الذين قالوا ويقولون : « ربنا عرفوه بالعقل » ! . .

ولأن الأساس متين ، والبداية صادقة ، والمنطلق مؤسس الدعائم ، فسرعان ما تبلور ونما لهذه الأمة بناؤها العقلي ، وهو علم الكلام ، وسرعان ما تحول تيارها العقلاني من موقف الدفاع إلى وضع الهجوم ، فرأينا جيش اللاهوتيين وقد نزع سلاحه ، فأضيف هذا « السلاح العقلي » إلى ترسانة المتكلمين بعد ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية ، وأصبحت له يومئذ فعالية لم تكن له في يد علماء اللاهوت ، لأنه قد أصبح بيد جيش تتسق جهوده العقلية مع الدين المؤسس على العقل ، وأبصر الذين فقهوا تلك الحقيقة ، عربا ومستشرقين أن علم الكلام الاسلامي ، الذي أسَّسه المعتزلة ، فرسان العقلانية في تراث المسلمين وفكرهم ، هو الذي تجسدت فيه عبقرية العرب المسلمين الفلسفية ، لأنه هو الذي استخدم « العقل » في الانتصار للدين المؤسس على العقل ، ومن ثم فلقد جاء بناء متوازناً ومتسقاً أيضاً . . ففيه تفلسف الدين ، وتدينت الفلسفة ! . . وفيه تجلت قوة هؤلاء الرواد وعبقريتهم ، وكما يقول ألفريد جيوم A . Guillume فان « قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا اقصى ما في طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة ، مصرين ، في الوقت نفسه ، على أن تكون تلك الأسس منطقية ، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية » ![1] .

وأمام عبارة جيوم ، هذه التي تبدو توليفة غريبة ومتناقضة لدى غير المسلمين ، نتذكر ما سبقت اشارتنا إليه ، في فصل سابق ، من حديث عن الطابع المتميز الذي تميزت به حضارة هذه الأمة ، ، طابع التوازن والموازنة بين طرفي النقيض في عدد من القضايا ، وقطبي الظاهرة في كثير من الأمور . . ففي فلسفة هذه الأمة (علم الكلام) وضحت هذه الموازنة ، وظهر ذلك التوازن أيضاً . .

---

(١) (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الاسلام) ص ٣٧٩ ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

* أي لاهوت ، وأي دين ذلك الذي جمع بين « **الشك** » وبين « **اليقين** » ؟ ! . . وفي أي فلسفة دينية ، غير علم الكلام الاسلامي ، عقدت أوثق الصلات وقامت أقوى الروابط ، روابط العضوية ، بين « الشك المنهجي الخلاق » وبين « الايمان ـ اليقين » ؟ ! . .

صحيح ان الحضارة الأوربية المسيحية قد عرفت « الشك المنهجي » على يد ديكارت Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) ولكن أوربا هذه هي أوربا « العلمانية » ، وبالمعنى المناقض والمناهض للاهوت المسيحي ، ولا زالت المسيحية ولاهوتها ينكران « الشك » ، منهجيا كان أو غير منهجي ، ولا زالت عبارة « القديس انسلم » هي القانون : يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر . . فليس الايمان في حاجة إلى نظر عقل » ! . .

أما في الاسلام ، وفي علم الكلام الاسلامي ، فاننا واجدون فيه ، وفيه وحده ، تلك العلاقة التي بلغت حد التزواج والتعايش ، بل والعضوية ، وحتى علاقة المقدمة بالنتيجة بين « **الشك** » وبين « **اليقين** » ! .

ففي القصص القرآني ، الذي يسوقه القرآن للعبرة والتأسّي والاقتداء ، يعلمنا الله سبحانه أن إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، قال لربه :﴿ أرني كيف تحيي الموتى﴾ فسأله ربه : ﴿أَوَلَمْ تؤمن ﴾ ؟ فقال إبراهيم : ﴿ بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ ! . .[1] فهو هنا يشك ، ويريد أن يطمئن قلبه ويتحصّل له اليقين ، ولم ير إبراهيم ، ولا رأى مولاه ، سبحانه ، تعارضا بين شكه وبين سعيه تحصيل اليقين ، لأن شكه هذا ليس فوضويا « لا أدريا » ، وإنما هو واقع موضوعي لا يستطيع أن يتجاهله ، وهو منهجي ، بمعنى أنه منظم وموظف في السعي إلى بلوغ الحقيقة وتحصيل اليقين . .

وفي السنة النبوية يروي أبو هريرة ، وتروي عائشة ، ويروي عبد الله بن عمر ـ كل بلفظه وعن طريقه ـ كيف قام الشك لدى جماعة من الصحابة على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، والشك في ماذا ؟ في الذات الإلٓهية ! . .

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

وكيف أرّقهم هـذا الشـك وأقضّ منهم المضـاجع وأزعـج فيهم الـطمـأنينة والاطمئنان . . ولكنهم لم يجدوا حرجا في أن يصـارحوا رسـول الله بما يجـدون ، فقالوا له : « يا رسول الله ، ان أحدنا يحدث نفسه بالشيء ما يجب أنه يتكلم به وإن له ما على الأرض من شيء ! . . إنّا لنجد شيئاً لو أن أحدنا خر من السماء كان أحب إليه من أن يتكلم به!» . . هكـذا شكّوا ، وهكـذا استعظمـوا خـطر الشـك وموضـوعه . . ولكن الـرسول ، صـلى الله عليـه وسلم ، بـروح البشـير المـذكـر ، يبصـر أن من « يشـك » هـو من يعمـل عقله ، ومن « يشـك » متأملاً ومفكـراً ، وشكا منظما وموظفـا في سبيل اليقـين ، هو ذلـك الساعي إلى تحصيل الايمان الحقيقي ، البـالغ مـرتبة « التصـديق واليقين » ، ولـذلك فهـو لا يصـدهم عن الشـك ، ولا ينهـاهم ، لأنـه من الـواقـع يبـدأ وينـطلق وبـه يقـر ويعتـرف ، بل يصـل عمقه وتحليقـه إلى الحد الـذي يسمّي هـذا الشـك بـاسم النتيجة والثمرة التي لا بد وأن يفضي إليها ، فيقول لصحابته هؤلاء عن شكهم هذا : « ذاك محض الايمان[1] » ؟ ! . .

ولذلك فان علم الكلام الاسلامي ـ وهو فلسفة هذه الأمة ـ عندمـا اعتمد الشك طريقا إلى اليقين ، وعندما قرر أن الشك المنـظم والمنهجي يجب أن يكون غاية يقصد إليها المتكلم ـ الفيلسوف ـ قصدا ، وعلما يسعى إلى تعلمـه عامـدا ، لأنه أكثر الـطرق الآمنة لتحقيق اليقـين الحقيقي ، « ومحض الايمان » . . عنـدما صنع ذلك علم الكلام فان منطلقه إلى ذلك ومصدره في هـذا إنما كـان اسلامياً خالصاً ، ومن ثم فان تعبيره عن روح الاسلام في هذه القضيـة لا تلحقه شـائبة من الشوائب بحال من الأحوال . .

ومن بـين متكلمي التيار العقـلاني الاسلامي نجـد الجـاحظ يتنـاول هـذه القضيـة . . فهو يـدعـو إلى الشـك . . وإلى معرفـة مواطنـه ومواضعـه . . وإلى اكتشاف أسبابه . . بل ويدعو إلى تعلم هذه الأمور ، أي تعلم الشك ، باعتباره علماً يقصد إلى تعلمه العلماء! فيطلب ذلك من قارئه قائلاً: « . . . **فاعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ، لتعـرف بها مـواضع اليقـين ، والحالات المـوجبة**

---

(١) رواه مسلم وابن حنبل .

لـه ، وتعلم الشـك في المشكـوك فيه تعلما ، فلو لم يكن في ذلـك إلاّ تعـرف التوقف ، ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . . » ! [1]

فهو يدعونا إلى التبصر عند النظر ، فإذا عـرضت لنا قضيـة يراد لنـا أن نحكم فيهـا فـلا بـد من « التثبت » ، وإذا كنـا امـام « شبهـة » فـلا بـد من « التـوقف » . . ثم يطلب منـا أن نرفض منهـج الـذين يجيبـون ، في مثـل هـذه المـواقف بـ « لا » أو بـ « نعم » فقط ، لأن للحقـائق زوايـا وقسـمـات ، تستدعي الاجابة العلمية عن مسائلها الربط بين هذه الزوايا والقسمات ، فلربما كانت الاجابـة في بعض نواحيهـا بـ « نعم » وفي بعضها الآخـر بـ « لا » ! . . وهـو يعرض لهـذا الموقف المنهجي بـاعتباره منهجـه في كتابـه (الحيـوان) ، فهـو يرفض التمذهب الذي جعل الناس فرقا وشيعا أراحت عقول المتمذهبين بها من عناء النظر في كل معضلة وقضية ومسألة عنـدما « تـرك الجمهور الأكبـر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكمة جانبا » وأضربوا عنـه صفحا ، فليس إلا : لا ، أو : نعم . الا أن قـولهم : « لا » موصـول منهم بـالغضب ، وقولهم : « نعم » موصول منهم بالرضى ! . . وينبه الجاحظ على ان هذا المسلك المعيب قـد حـرم النـاس من استخـدام نعمـة « الحـريـة » ، فلم يكتشفـوا ، بوساطتها ، الحلال من الحرام ، ولا الحسن من القبيح ! إذ قـد « عزلت الحـرية جانبا » ـ كما يقول ـ بمسلكهم هذا . . [2] !

ثم يحـدثنا الجـاحظ عن أن العلماء والمفكـرين ـ (الخـاصـة) ـ لهم حيـال الحقـائق والمسـائـل حـالات ثـلاث : التكـذيب والـرفض ، أو التصـديق ، أو الشـك ، وهو درجـات وطبقـات . . بينـما العـامـة والجهـلاء لا يعـرفـون إلا : التكذيب ، أو : التصديق ، لأنهم مقلدون ، لا يستخدمون ملكاتهم العقلية كما ينبغي للانسان الراقي أن يستخدمها . فكأنما الشك المنهجي علامة مميزة لعقلانية الانسـان العاقـل . . يقول : « **والعـوام أقـل شكـوكـا من الخـواص ، لأنهم لا**

---

(١) (الحيوان) ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٨ .

يتوقفون في التصديق والتكذيب ، ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الاقدام على التصديق المجرد ، أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك ، التي تشتمل على طبقات الشك ، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك ، وعلى قدر الأغلب . . »[1] .

ولقد كان الجاحظ ، في هذا الموقف ـ موقف الربط والموازنة بين « الشك » وبين « اليقين » ـ واحداً من تيار عريض ، هو تيار علماء الكلام العقلانيين ـ وهو نفسه ينبهنا على أنه ليس وحيدا في القول بهذا . . فأستاذه النظام أبو اسحاق إبراهيم بن سيار (٢٣١ هـ ٨٤٥ م) له تجارب في الجدل مع الملحدين جعلته يفضل أهل الشك على الجاحدين ، فيقول ، : « نازعت من الملحدين : الشاك ، **والجاحد ، فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام** من أصحاب الجحود . . » الأمر الذي جعله يقطع بحتمية سبق الشك لليقين ، وبعبارته : « . . **ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك** » ![2] .

بل لا ينسى الجاحظ أن يحكي لنا فخر العلماء بالشك . . فعندما « قال ابن الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك ! قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن ! ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين » ![3] .

وعند امام آخر من أئمة علم الكلام ، وعلم من أعلام المعتزلة ، هو أبو هاشم الجبائي (٢٤٧ ـ ٣٢١ هـ ٨٦١ ـ ٩٣٣ م) يبلغ الايمان بهذا المنهج القمة . . فأبوه : أبو علي الجبائي (٢٣٥ ـ ٣٠٤ هـ ٨٤٩ ـ ٩١٦ م) ـ وهو من أئمة المعتزلة أيضاً ـ قد رأى أن الواجب الأول على الإنسان هو « النظر »، بما في هذا النظر من يقين أو شك يقود إلى اليقين[4] . . أما أبو هاشم فلقد رأى أن

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥ .
(٤) د . علي فهمي خشيم (الجبائيان : أبو علي وأبو هاشم) ص ٣٣٣ طبعة طرابلس ، ليبيا سنة ١٩٦٨ م .

الشك هو الواجب الأول على الإنسان . . لأنه ـ كما تقدم ـ « لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك » .

هكذا تعايش « الشك » و« اليقين » ، بل ارتبطا ارتباط المقدمة بالنتيجة ، والأسباب بالمسببات ، والطريق والنهج بالمقاصد والغايات . وهكذا وازنت فلسفة الاسلام بين ما كانا ولا يزالان نقيضين لا سبيل إلى التوفيق بينهما في غيرها من فلسفات الشرائع والأديان . . فامتازت وتميزت في ذلك ، عن غيرها من فلسفات الأديان . . .

ثم . . أين هي الفلسفة الدينية ـ (اللاهوت) . . غير علم الكلام الاسلامي ، تلك التي طرقت أصعب الدروب عندما ذهبت فحاولت التوفيق بين ما للذات الإلهية من إرادة وقدرة فاعلة في هذا الكون ، وبين ما في الطبيعة وظواهرها وما في الأشياء ، بالطبع ، من قوى فاعلة ، تؤثر وتفعل عندما تتوافر لها الظروف والشروط ؟ . .

إن فلسفات كثيرة ، ومنها الحديثة ، وبعضها ليس بالديني أيضاً ، ذهبت وتذهب إلى إنكار الوجود الموضوعي للأشياء في الحقيقة والواقع ، وقالت أنها موجودة ، فقط ، في الفكر والذهن الانساني ، وأنه هو الذي يضفي عليها ما نحسبه وجودا موضوعيا متحققا لها خارج الذهن والتفكير . وفي لاهوت الشرائع غير الاسلامية يرجعون الوجود الحقيقي والتأثير الحاسم للمادة والظواهر والأشياء إلى ما يصدر عن ارادة الخالق سبحانه ، وإلى ما تفيضه هذه الارادة على هذه الظواهر والأشياء . . ومن ثم فلقد أقام هذا اللاهوت تناقضا حادا بين « الألوهية » وبين « الطبيعة » وقوانينها وفعل ظواهرها وتأثير مادتها . . وذهبوا في ذلك إلى حد انكار العلاقة الضرورية للسببية ، فرأوا أن لا علاقة ضرورية بين وجود الأسباب ووجود المسببات ، وأن ما بينهما لا يعدو أن يكون مجرد « اقتران » جرت العادة أن يحدث بحدوثه التأثير ! . . كما ذهبوا إلى أن الأشياء لا تكون « حسنة » ، لأنها بطبيعتها ، حسنة ، ولا تكون « قبيحة » لأنها ، بطبيعتها ، قبيحة ، وإنما هي هذه أو تلك لأن هناك نصا ومأثورا وحكما ، من خارج هذه الأشياء ، هو الذي جعلها كذلك ! . . كما أقاموا تعارضا حادا بين أن تكون

obeikandl.com

المادة قديمة والعالم قديماً وبين أن يكون لهذه المادة ولهذا العالم خالق قادر فعال لما يريد ! . .

ولقد نبتت أو انتقلت آراء من هذه إلى البيئة الاسلامية بعد عصر تبلور علم الكلام ونشأته الأولى ، وبعد أن طوى التاريخ صفحة الازدهار الأولى للقسمة العقلانية في حضارتنا ، فوجدنا من يقيم تناقضا بين أن نؤمن بارادة الله الفاعلة في هذا الكون وبين أن نؤمن بعلاقة الضرورة ، التي لا تتخلف بين الأسباب والمسببات ، ورأينا إماماً عظيما مثل الغزالي ينكر ان تكون النار هي التي تحرق القطن عندما يشتعل بها ، وأن يكون السيف هو الذي قطع عنق المقتول به ، وأن يكون الثلج هو الذي أحدث البرودة في الماء الموضوع فيه ، وأن يكون الأكل هو الذي يحدث الشبع والماء هو الذي يحدث الري للانسان ؟ ![1] . . . .

أما علم الكلام الاسلامي ، كما تبلور على يد التيار العقلاني في حضارتنا ، وكما تجسَّدت فيه إبداعات هذه الأمة في الفلسفة المتدينة ، فإنه قد أبرز إلى الوجود أكثر محاولات الفكر الانساني توفيقا ـ وليس تلفيقا ـ بين ما عده اللاهوتيون متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينهما ، فضلا عن التوفيق . .

فللأشياء وجود موضوعي وحقيقي خارج الفكر والذهن ، بل أن هذا الوجود هو الذي يصدر منه العلم الانساني والفكر منعكسا على الذهن ، وتغير هذا العلم والفكر وتطورهما مرهون بما يحدث من تغير وتطور في « الموجود » خارج الأذهان . . وبعبارة ابن رشد : « . . ان علمنا معلول للمعلوم به ، فهو محدث بحدوثه ، ومتغير بتغيره . . ووجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا . . . والكليات المعلومة عندنا معلولة أيضاً عن طبيعة الموجود . . »[2] .

والتناقض بين الألوهية ـ (التوحيد) ـ وبين الاعتراف للطبيعة بدور وأثر ، تناقض مفتعل ومزعوم ، لأنه يتجاهل أن تأثير الطبيعة والمادة وفعلها إنما

(١) انظر آراء الغزالي هذه في (تهافت الفلاسفة) ص ٦٥ ـ ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م . وانظر رد ابن رشد عليها في (تهافت التهافت) ص ١٢٢ ـ ١٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .
(٢) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٤٠ .

obeikandi.com

هو قانون نابع من خصائصها الذاتية ، وأنه ، كغيره من القوانين ، هو واحد من سنن الكون التي تحكمه وتسيِّره ، وأنه ، أيضاً ، جزء من كل أراد الله سبحانه أن يكون كذلك وأن يفعل هذا في العمل والتأثير . . وبعبارة الجاحظ التي تلمس هذه القضية ، مع الاعتراف بخطرها وصعوبات استيعابها على غير أهلها ، . .

« . . فإن المصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد ، واعطاء الطبائع حقها من الاعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بابطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه عن الكلام في التوحيد ! وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنها بالتوحيد . ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع ! وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه !. ولعمري إنّ في الجمع بينهما لبعض الشدة ؟! . . وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركناً من أركان مقالتي ! ومن كان كذلك لم ينتفع به »[1].

فالجاحظ في هذا النص الهام يعلن أن صعوبة التوفيق بين التوحيد وبين « الطبائع » لا تبرر دعوى التناقض بينهما ، لأن هذه الدعوى هي ثمرة العجز عن التوفيق ، الذي هو ممكن وضروري ، لأنه هو الحقيقي ! . . وهو ، أيضاً ، إضافة من إضافات علم الكلام الاسلامي إلى الفلسفة الدينية واللاهوت . .

وانطلاقاً من الاقرار للأشياء والظواهر بخصائصها الذاتية . . وإيمانا بقدرة العقل الانساني على الحكم والتمييز في نطاق هذه الأشياء المادية ، قال المتكلمون بأن « الحسن » و« القبح » في هذه الأشياء ذاتي ، وبأن العقل قادر على ادراك ذلك والحكم به دون أن يتوقف ذلك على النصوص والمأثورات ، طالما كان الأمر في نطاق ما تدركه العقول الانسانية ، مما هو خارج عن نطاق الغيب وما اختصت به علوم الوحي الإلهي إلى الرسل والانبياء . .

وانحاز المتكلمون ، أيضاً ، إلى الموقف الذي يربط ، ربطا ضروريا ، بين

---

(١) (الحيوان) ج ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

obeikandi.com

الأسباب والمسببات . . وفاضت آثارهم الفكرية بصفحات وصفحات تقرر هذه الحقيقة وتبرهن على صدقها . .

وفي الموقف من العالم ، أقديم هو؟ أم حادث ؟ قدموا فكرا لعله غير مسبوق في نطاق الإلهيات . . فالمعتزلة ، مثلا ، ينكرون أن يكون هناك « زمن » قد كان فيه العالم عدماً ؟ ! ـ مع ملاحظة أن « الزمن » مرتبط بالحركة ، وهي مرتبطة بـ « الوجود » ! ـ وهم يقولون أن ما يسمى بـ « العدم » هو في الحقيقة « شيء » . . وهذا الشيء هو الذي يسميه ابن رشد « الوجود بالقوة » ، وأن عملية « الخلق » هي عملية دائمة ومستمرة في هذا الكون ، فالموجود بالقوة ينتقل ، بالخلق ، ليصبح موجودا « بالفعل » ، والتحول ـ الذي نسميه « فناء » ـ هو الانتقال بالموجود « بالفعل » إلى حال الوجود « بالقوة » ، وهكذا باستمرار . . . ولذلك رأينا ابن رشد يُنبِّه على أن سببا هاما من أسباب الصراع بين الذين قالوا بقدم العالم وبين الذين قالوا بحدوثه هو حسبانهم أن « القدم » و« الحدوث » ، في هذا المبحث ، متقابلان في المعنى ومتضادان في المحتوى وحقيقة المفهوم ، بينما « الأمر ليس كذلك ؟ » و« الاختلاف في هذه المسألة بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ! . . . »[(1)] .

هكذا طرق المتكلمون المسلمون ، والتيار العقلاني منهم بخاصة ، ذلك المبحث الصعب ، وارتادوا هذا الدرب الأصعب . . فمن قبلهم كانت الفلسفة ، وعند اليونان خاصة ، لا تلقي طويل بال إلى تقديم التصورات التي تجمع بين منطلقاتها وحقائقها وبين التصورات « الإيمانية » للكون وللظواهر ، وفي الطرف الآخر كان اللاهوتيون ينكرون تصورات الفلسفة لهذه الأمور ، وحتى عندما كانوا يستعيرون أدوات الجدل الفلسفي للدفاع عن تصوراتهم فإنهم كانوا يقفون غالباً من الفلسفة عند الأدوات ! . . أما علم الكلام الاسلامي فإنه

---

(1) (فصل المقال) ص ٤٢ ، ٤٠ . وانظر في آراء ابن رشد حول هذه القضايا كتابنا (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧١ م .

طرق باب « التوفيق » ـ لا التلفيق ـ بين الحكمة والشريعة ، وقرر ـ كما قال ابن رشد ـ أن الشريعة أخت الحكمة « وأن النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له ! »[1] . .

صنع المتكلمون ذلك وأنجزوه . . بل لقد كان صنع ذلك وانجازه هو الشرط الأولي والضروري كي يشرف الواحد منهم بانخراطه في عداد أفذاذ المتكلمين . . وكما يقول الجاحظ : « . . وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ، متمكناً من الصناعة ، يصلح للرئاسة ، حتى يكون الذي يحسن من **كلام الدين** في وزن الذي يحسن من **كلام الفلسفة** . . »[2] فمنهما جاء المزيج ـ (علم الكلام) ـ وبينهما قامت المصالحة ، إلى حد كبير ، وتم التوفيق في عدد من القضايا والتصورات . .

وأخيرا . . فإن إنجازاً كهذا ما كان له أن يتم بغير اعلاء شأن العقل وتكريمه ، والثقة في مناهجه وبراهينه ، والاعتماد عليه سبيلا للهدى والرشاد بالنسبة للانسان . .

وكما سبقت اشارتنا فإن التيار العقلاني في حضارتنا لم ينطلق إلى اعلاء شأن العقل وتأكيد سلطانه من فراغ ، فلقد كان هناك القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وحكمة العرب القدماء ، وكلها تزكّي الانطلاق إلى هذه الغاية وتحث على السعي في هذا الطريق . . ولكن هذا التيار اضاف الكثير ، وفصل المجمل ، ووضع المبدأ العام في صورة منهج عقلي ، وقام بتطبيقه على المشكلات وموضوعات الجدل وقضايا الصراع . .

فتجاه « النصوصيين »، الذين يقفون عند النصوص والمأثورات وحدها ، أو يقفون عند ظواهرها فقط ، منكرين « التأويل » . . قطع العقلانيون باستحالة التعارض بين « الكتاب » وبين « العقل » . . ووجدنا ذلك التصوير الرائع الذي حدثنا عنه الجاحظ ، فجعل « الكتاب » دليل الله وحجته

---

(١) (فصل المقال) ص ٣١ ، ٣٢ .
(٢) (الحيوان) ج ٢ ص ١٣٤ .

obeikandl.com

لدى الانسان . . و« العقل » كذلك ـ غريزيا أو مكتسبة أو هما معا ـ « وكيل الله » ودليله وحجته لدى الانسان . . فهما دليلان ، خلقهما خالق واحد ، واستهدف منهما معا تحقيق الهداية والرشاد ـ كل في مجاله ـ للانسان . . ومن ثم فإن تعارضهما وتناقضهما هو أمر مستحيل ![1] وإذا بدا أن هناك تعارضا بين النص والمأثور وبين معطيات البرهان العقلي ، قطع العقلانيون ، وهم في الاطمئنان على درجة اليقين أن لا تعارض على الاطلاق ، وأن التأويل ـ المحكوم بقوانين اللغة وقواعد الأسلوب العربي ـ للنص سيجلي الحقيقة ويظهر الاتفاق التام بين برهان العقل وبين النص المأثور . . وعن هذا اليقين يتحدث ابن رشد فيقول : « . . ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي . . بل نقول : أنه ما من منطوق به في الشرع ، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه ، وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل ، أو يقارب أن يشهد . . وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن ! . . »[2] . . ذلك أن مجيء الشرع بما يعارض العقل ، عندهم ، مستحيل ، بل أن ما جاء به الشرع أما أن يكون واجبا بالعقل أو جائزا في نظره « فلم يرد الشرع إلا بما أوجبه العقل أو جوَّزه ، ولم يرد بما حظَّره العقل أو أبطله . . » وهكذا كانت حجج العقل وبراهينه حاكمة على حجج السمع وقاضية في أمرها ، وبعبارتهم : « صارت حجج العقول قاضية على حجج السمع ، ومؤدية على علم الاستدلال ، ولذلك سمى كثير من العلماء العقل : أم الأصول ! »[3] .

وتجاه « النصوصيين » الذين استبعدوا « العقل » عند تحديدهم « للأدلة » ، وقصروا دوره على إلحاق « الفروع » « بالأصول » في عمليات « القياس » ، وقالوا : أن الأدلة هي : الكتاب والسنة ، والاجماع ، على هذا

---

(١) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٩٢ ، ٩٦ .
(٢) (فصل المقال) ص ٣٣ .
(٣) الماوردي (أدب القاضي) ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ . تحقيق محيي هلال السرحان. طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .

الترتيب . . تجاه هؤلاء اتخذ التيار العقلاني موقفا متميزا وبالغ الجرأة عندما قرر أهله أن « العقل » دليل مستقل ، وأنه ليس رابع هذه الأدلة الثلاثة ، بل هو أولها من حيث الترتيب . . . ذلك أن الصراع مع خصوم لا يؤمنون بنصوص الكتاب والسنة يستحيل أن تكون أدواته النصوص التي لا يؤمن بها هؤلاء الخصوم . . وكذلك يستحيل أن يكون أداة هذا الصراع هو الاجماع ، لأنه اجماع المؤمنين بهذه النصوص التي يرفض الخَصم حجتها ، وهو اجماع مؤسس ، أيضاً ، على هذه النصوص . ومن ثم فلا بد لهذا الصراع من أداة ذات طابع إنساني ، تتخطى حجيتها الأديان والحضارات والسلالات والقوميات ، وهذه الأداة هي العقل بمناهجه وبراهينه . . فنحن إذا شئنا ، مثلا أن نهدي ضالاً إلى الإيمان بأن لهذا الكون خالقاً مبدعاً وقادراً . فليس السبيل إلى مناظرته تلاوة النصوص وتفسيرها ، لأن ذلك إنما يصلح لمن يؤمن بأن هذه النصوص هي وحي ، ووحي إلى رسول هو مؤمن به سلفاً ، وأن الله هو الذي أوحى بها إلى هذا الرسول . أما إذا كان الخصم منكراً للمصدر الأصلي للنص ، أي الله ـ والعياذ بالله ـ فإن الأمر يتطلب أداة جدل وسبيل اقناع ، غير النص ، نثبت بها ، أولا ، عقيدة الألوهية ، ووحدانية الذات الإلّهية ، ثم نتدرج إلى الوحي ، بالنبوة والرسالة ، فصدق هذه النصوص .

وبهذا المنطق ، ومن هذا المنطلق جعل العقلانيون الأدلة أربعة ، وجعلوا « العقل » أولها في الترتيب . . ولما كانت النصوص والمأثورات ، بعضها محكم وبعضها متشابه ، ومنها ما هو قطعي الرواية وما هو ظني فيها ، ومنها ما هو قطعي الدلالة وما هو ظني فيها ، ومنها ما يختلف فيه تأويل المتأولين وتفسير المفسرين . . رأى العقلانيون ضرورة جعل « العقل » وبراهينه حَكَماً تعرض عليه المأثورات عند الاشتباه والاختلاف ، ومن هنا قالوا أنه الأصل في جميع الأدلة أيضا ! . . وبهذا المنطق ، ومن هذا المنطلق، ولهذه الأسباب قالوا : « إن **الأدلة أولها : دلالة العقل : لأن به يميز بين الحسن والقبيح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والاجماع ، وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هي : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، فقط . أو يظن أن العقل ، إذا كان يدل على أمور ، فهو مؤخر ، وليس الأمر كذلك ،**

لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والاجماع ، فهو الأصل في هذا الباب . وإن كنا نقول : أن الكتاب هو الأصل ، من حيث أن فيه التنبيه على ما في العقول ، كما أن فيه الأدلة على الأحكام . وبالعقل يميز بين احكام الافعال وبين أحكام الفاعلين ، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يذم ، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له . ومتى عرفنا بالعقل إلهاً منفردا بالإلهية ، وعرفناه حكيما ، نعلم في كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلا للرسول ، ومميزا له بالأعلام المعجزة من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة ، وإذا قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « لا تجتمع أمتي على خطأ ، وعليكم بالجماعة » ، علمنا أن الإجماع حجة . . . »[1] .

فالعقل هو أول الأدلة ، وليس ذلك فقط ، بل هو أصلها الذي به يعرف صدقها ، وبوساطته تستبين حجية الكتاب والسنة والاجماع . .

وكذلك الحال في معرفة الاصول الشرعية ، فهم يرون أن العقل هو سبب معرفتها ، بل السبب شبه الوحيد في معرفة هذه الأصول ، لأن المرء لا يحتاج ، مع العقل ، في معرفة الأصول الشرعية إلا إلى حذق اللسان العربي عندما يتعلق الأمر بحجج السمع خاصة ، وهم في هذا يقولون : أما وقد « ثبت وجوب النظر في الأصول الشرعية ، **فالسبب المؤدي إلى معرفتها والعمل بها شيئان : أحدهما : علم الحس ، وهو العقل ، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول .** والسبب الثاني : في معرفة الأصول الشرعية : معرفة لسان العرب ، وهو معتبر في حجج السمع خاصة . . »[2] .

هذا عن مقام العقل عند التيار العقلاني من المتكلمين . . وهذه هي إحدى الإضافات التي صنعوها على درب تطور الفكر الانساني ، فبعد أن كان مقام العقل عاليا ، فقط ، في الفلسفة ، ومستبعدا تماما ، أو إلى حد كبير ، في

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧ .

(٢) الماوردي (أدب القاضي) ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

الإلهيات . . انتقلوا به ، وهو في سلطانه العظيم ومقامه العالي ، إلى الإلهيات أيضا ، وعالجوا على ضوء براهينه قضايا العقيدة أيضا ، حتى لقد رأيناهم يتسعون بنطاق العلوم العقلية ، المؤسسة على براهين العقل ونظره ، بعد أن كانت الديانات والشرائع السماوية لا تعرف غير العلوم الشرعية المؤسسة على الوحي وحده . . بل سموا « العلوم العقلية » ـ ومنها « العلم الإلهي » ـ بالعلوم الحقيقية » ! . . . وقالوا عنها : أنها « لا تتغير بتغير الملل والأديان ! »[1] .

ولما كانت هذه القسمة العقلانية ، في الحضارة العربية والتراث الاسلامي ، لم تنشأ ترفاً فكريا ورياضة ذهنية مجردة لقلة من الصفوة المستنيرة في صفوف العلماء والمفكرين ، وإنما نشأت استجابة لضرورة ملحة وقاهرة فرضها ذلك التحدي الفكري الذي فرضته الديانات والمذاهب والملل والنحل غير الاسلامية على الاسلام وأهله ، في الدولة العربية ، عندما كان المسلمون قلة عددية بين المتدينين بتلك الأديان . . لما كان الأمر كذلك ، فإن هذه القسمة العقلانية لم تقف عند حدود فكر الخاصة وابداع الصفوة المستنيرة ، وإنما أصبحت سلاحا في يد المتكلمين للدفاع عن الاسلام . . لقد ولدت ونمت وتبلورت سلاحا في معركة ، واستمرت ، إلى أمد طويل ، حصنا لهذه الأمة وسلاحا لها تصدت به لمواجهة التحدي الفكري الذي فرضه عليها خصومها الفكريون . .

وإذا كان فرسان العقلانية ، من متكلمي المعتزلة ، هم الذين ناظروا زعيم « السمنية » ـ في القصة التي رويناها ـ وأفحموه ، فإنهم ، أيضاً ، هم الذين نهضوا بالعبء الأكبر في نشر الاسلام والدفاع عن عقائده ، وخاصة بين أبناء الأمم والملل التي شاع فيها قدر من التراث العقلاني ، ومنطق أرسطو ، وفلسفة اليونان . . لأنهم كانوا ، قبل غيرهم ، المؤهلين لذلك ، ولأنهم ، دون سواهم ، كانوا هم المسلحون بالعقلانية ، التي تفوقت على الأدوات العقلانية والمنطقية لهؤلاء الخصوم . . **لقد اكتشفوا سر تفوق الخصم ، وامتلكوا هذا**

(١) التهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) ج ١ ص ٤٦ ـ ٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

obeikandi.com

السر ، وعلى يدهم وبابداعهم تطور فأصبح سلاحهم في تقرير عقائد الاسلام ، ودفع شبهات خصومه ، وكسب الانصار إلى الايمان بهذا الدين الحنيف . .

ولما كان المعتزلة هم فرسان العقلانية العربية الاسلامية ، وأهم فرقها ومدارسها ، فإن فرقة من فرق الاسلام لم تتصد لمناهضة خصُومه كما تصدت لهم المعتزلة . . فالخوارج ـ والعقلانية في فكرهم ملحوظة ـ كانوا في شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التي لا تدع وقتا ولا جهدا للفكر النظري ومجادلة خصوم الاسلام . . والشيعة ـ وهم عقلانيون في جوانب عديدة من عقائدهم ـ كانوا قد شغلوا باتقاء اضطهاد الأمويين ، وبتجسيد أحزانهم ومأساتهم كي تتحول إلى رباط عاطفي يكسب الأنصار ويديم لفرقتهم البقاء . . والمرجئة والجبرية الأموية كانوا « أهل حشو » يقفون عند ظواهر النصوص ، ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسطو وحكمة الفرس وفلسفة الهند واليونان ـ ولم تكن الفرق الأخرى قد ظهرت بعد في الحياة الفكرية الاسلامية ـ . . . أما المعتزلة فقد كانوا هم فلاسفة الاسلام الإلهيين ، الذين تفلسف عندهم الدين وتدينت لديهم الفلسفة ، ومن ثم كانوا هم الفرقة الاسلامية التي تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، بل واتخذت موقع الهجوم ووضعه ضد هؤلاء الخصوم . . وإذا كان تراثهم في أغلب الميادين ، وفي هذا الميدان بالذات ، قد أتت عليه الاحداث غير المواتية فأبادته ، فإن هناك شواهد على أنهم كانوا أبرز من تصدى لمحاولات بعث عقائد الفرس القديمة ـ الثنوية ، وفروعها ـ تلك التي بعثها الشعوبيون في السنوات الأولى لحكم العباسيين . . وكما يقول جب Gibb (١٨٥٦ ـ ١٩٠١ م) فإن المعتزلة هم الذين « استطاعوا أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة ، وأن يفحموهم ، وأن يسندوا ، بل نقول : أن ينشئوا ، الفلسفة الاخلاقية المستمدة من القرآن . . »[1] .

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ١٦ ، ترجمة الدكتور احسان عباس ، الدكتور محمد نجم ، الدكتور ، محمد زايد . طبعة بيروت ١٩٦٤ م .

ويكفي أن نشير إلى أن الجزء الخامس من كتاب (المغني في أبواب التوحيد والعدل) الذي ألفه قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد ، قد أفرد للرد على الديانات والفرق والمذاهب غير الاسلامية ، لا على النحو الذي نجده في كتب (الملل والنحل) عند غير المعتزلة ، كالبغدادي (٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م) والشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣ م) وابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م) وإنما على النحو الذي يشعرنا بحرارة المعركة التي خاضها المعتزلة ، بفكرهم العقلاني ، ضد هؤلاء الخصوم الفكريين في ذلك الصراع الفكري الحضاري الطويل . .

ومن الذي يستطيع أن ينكر دلالة ما روي في سيرة امام المعتزلة أبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) ـ وهو الذي تبلورت في عصره نظريتهم الفكرية في « أصولهم الخمسة » ـ فلقد قالوا أنه قد مارس الدعوة إلى الاسلام بين أولئك الذين ورثوا تراثا عقلانيا من أبناء البلاد المفتوحة ، وأن الذين أسلموا على يديه وحده قد زادوا عن ثلاثة آلاف ! . . أما بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ ٨٢٥ م) ـ وهو من أئمة المعتزلة أيضا ـ فقالوا أنه قد نذر لله نذرا أن يكسب إلى الإسلام اثنين في كل يوم ! فإذا لم يتحقق له الوفاء بالنذر في يوم من الأيام عدَّه دينا ، واجب القضاء ، فقضاه ؟ ! . .[1] .

إذن . . فبهذه القسمة العقلانية في حضارتنا وتراثنا كان تصدي أمتنا للتحدي الفكري الذي فرضه عليها خصومها الفكريون . .

وبالتيار العقلاني في هذه الحضارة كان الدفاع عن الاسلام ، وكان انتشاره أيضا . . الأمر الذي جعل المسلمين أغلبية في رعية الدولة ، وفي القومية التي تبلورت على أرضها ، والذي جعل الاسلام على ما أصبح عليه . . ديناً يزهو ، لا بنصوصه الشريفة ومأثوراته المقدسة فقط ، وإنما بالعقلانية التي أصبحت ، للمرة الأولى ، درعاً للدين وقسمة تمتزج بعقائده وأصوله وتتعايش معها في الغالب من الأحيان . .

---

(١) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٥١ .

وإذا كان حقا أن الاسلام ، كدين ، لم ينتشر بالسيف . . فإن من الحق ، كذلك أن نقول : أنه قد انتشر انتشاره الأكبر بالعقل والعقلانية ، وخاصة عندما تكون الدعوة إليه بين الذين يحترمون سلطان العقل ويجلون ما له من براهين . . وأن نقول أيضاً : أن أعظم صفحات تاريخ هذه الأمة هي صفحة ازدهار حضارتها العربية الاسلامية . . وأن أبرز قسمات هذه الحضارة قد تمثلت في تبلور الشخصية القومية الواحدة للأمة . . وفي الثراء الفكري الذي أبدعه العقل العربي المسلم . . وهما قسمتان ، أو وجهان لعملة واحدة ، صنعها التيار العقلاني في تاريخنا وتراثنا ، ذلك التيار الذي جعل العقل أشرف سبيل لأشرف المقاصد والغايات . .

obeikandl.com